بشّار .. في قفص الاتهام !

بقلم ذو النون أيوب

سحب الدكتور محمد النويهي بشار بن برد ، من لحيته ، عبر اكثر من الف من السنين ، ليضعه في قفص الاتهام ، حسب قانون السلوك والاخلاق ، في عصرنا ، بعد ان حاول الدكتور جهده ، ان يجعل هذا القانون ساري المفعول في كل زمان ومكان . ولعله قد افلح البعض ، ولكني اعتقد ان الذين لم يقتنعوا كثيرون ، وانا احدهم .

لن احاول الرد على منطق الدكتور ، مادة مادة ، فلست من انصار النقاش الجدلي ، والمرافعة حسب الاصول القانونية التقليدية. بل اريد ان ادلي بآرائي على طريقتي .

بشار ، كما يعرفه كل دارس للادب العربي ، والشعر على الاخص ، من ابرز شعراء صدر الدولة العباسية ، ومطلع حضارتها ، مغمور النسب ، عظيم الخلقة ، اعمى ، قبيح العمى ، ولا ظل للشك في انه كان حاد الذكاء ، وقد شحذ العمى حاسني السمع والذاكرة عنده ، مما اعانه على استكمال فنه ، والبراعة في الشعر ، الفن الذي لا ينافسه فن آخر يومذاك . فبشار اذن فنان عبقري . وبشار مسلم بالولادة والتبعية ، عاش في ظل دولة قانونها الاسلام ، ودستورها القرآن ، ومن هذين المنبعين ، كانت تستنبط كل قوانين العرف والتقاليد والمعاملات والاخلاق .

المحور الذي دار عليه اتهام الدكتور هو سلوك جنسي ، بين بشار ، وفتاة مجهولة . هذه النقطة اصبحت مدار جدال في عصرنا الحاضر ، ما علاقة الجنس بالاخلاق ؟ ما الذي يحكم علاقة الذكر بالانثى عند بني الانسان ؟ من حلال وحرام ، وسمو وانحطاط ؟ وما هي نظرة الاخلاق الى العملية الجنسية نفسها ؟ أهي رجس كالبول والغوط ؟ كما ذهب الى ذلك الدكتور النويهي ؟ ام هي عملية سامية الهية ، عملية خلق ؟

لا جدال ان الجنس مصدر الحياة ، يأتي بعد القوت في الاهمية (ماركس) ، وبعضهم يضع الاثنين في مرتبة واحدة (المفكرون الاحرار) ، وان منهم من يضع الجنس في المرتبة الاولى (فرويد) . ولسنا في مجال الجدل بين هؤلاء . ولكن ما لا يمكن نكرانه ، انه لولا الاعضاء الجنسية ، وما تقوم به من عمل عند الاتصال الجنسي بين الذكر والانثى ، لما كان ثمة خلق ، ولا حياة ، ولا فن ، ولا ادب ، ولا هذه المجلة ، وصاحبها ، ولا انا ، ولا الدكتور النويهي .

لقد كان القوت والجنس موضعي تقديس وعبادة ، للمخلوق الحي الواعي ، للحيوان الذي سمي انسانا من يوم استحق هذا الاسم Homo Sapiens . وذلك طبيعي جدا ، فالحي المتعلق بالحياة ، والذي اخذ يضرب متعمقا في اسرارها بفكر متطور متسام ، شرع يبحث عن مصدري القوت والجنس ، واخذ يعبد ما كان يتصور انه مصدرهما ، بتقديم القرابين مما وهبته له هذه الآلهة : القوت ، والجنس . كان يحرق القوت ليتصاعد دخانا الى مراتب الآلهة ، ويذبح ذكرانا واناسا من بنيه ، لتصعد ارواحها الى نفس تلك المراتب العليا.

ثم ارتقى وتطور ، وتطورت عبادته ومعابده ، صار يبني المعابد ويملأها بتماثيل وازهار : تماثيل عارية ، قد يؤكد فيها وضوح اعضاء التناسل ، والازهار ما هي الا اعضاء تناسل النبات ، والرحم الذي ينمو فيه الجنين . ويقوم بالطقوس كهان وكاهنات ، يغنون ويرقصون، مقلدين اصوات العناصر الطبيعية التي تهب الحياة ، من ريح ومطر ورعد وبرق ، بل ويقومون بالعمل الجنسي ، طقسا من طقوس العبادة، وما كانت تلك العبادة الا رجاء لزيادة الخير وخوفا من العقاب بالمنع . وقد افاض في هذا البحث السر جيمس جورج فريزر في كتابه الشهير « الغصن الذهبي » .

وقد وجد كريستوفر كولومبوس سكان جزر الهند الغربية الابتدائيين لا يستحون من العملية الجنسية ، بل يعتبرونها من الاشياء المبهجة ، التي لا يمنع عنها حتى الصغار عند اللعب ، وما اكثر ما كانوا يقومون بـ « الكناسي » لتكريم الزوار .

ويوم بدأ عهد التملك في حياة الانسان ـ دور الرعي ـ تملك الحيوان وتملك الانسان (العبيد) لخدمة الحيوان ورعيه ـ ودور الاقطاع ـ تملك الارض وتملك الانسان (العبيد) لخدمة الارض ، ثم دور الرأسمال ـ تملك الآلة المنتجة والتحكم برقاب العاملين عليها (العمال) ـ في ادوار التملك هذا خرجت العلاقات الجنسية عن طبيعتها الانسانية ، الطبيعة السوية ، وخضعت لقوانين ودساتير واعراف تعين الملاك ، على التحكم بمصير التابعين ، وتصون املاك الاقوياء من ان يمد لها الضعفاء ايديهم . ومن يومذاك شعر الانسان انه قد خرج عن انسانيته ، واخذ يحاول التملص ، والرجوع الى جنته الاولى . فكان الثوار والمتمردون والخارجون عن الاعراف والتقاليد ، وكان الفن النقي الذي يستمد روحه من عناصر الحياة الاولى ، واصولها الطبيعية ، هو المشعل الذي ينير الطريق للانسان الذي صار يبحث عما فقده .

ان الاشتراكيين يقولون : عندما تعم الاشتراكية العالم ، ستسقط كل القيود التي كبلت الانسان منذ الازل ، والتي كان مصدرها احتكار القوت والجنس لاقلية ، ومنعها عن بقية ابناء البشر .

والاديان السماوية تعترف بهذه الجنة المفقودة ، فالتوراة تقول ان آدم وحواء كانا عاريين كما خلقهما الله . كانا يفعلان ما هو طبيعي، دون انهام ما يفعلان ، بالخطأ او الجرم (الانسان الاول) ، حتى اذا اكلا من شجرة المعرفة (الزراعة) ثم قتل قابيل هابيل (احتكار الجنس والاستعباد) بدأت الشرور بعد ان ضاعت الجنة وطرد الانسان منها. وكل الديانات اصبحت تمني الانسان بالجنة ، ولكنها تشترط الطاعة للانظمة المستحدثة في حياة الانسان . وتعترف ان الانسان يحتمل قيودا غير طبيعية لا تطاق (انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان ، ان الانسان كان ظلوما جهولا) . اما هذه الجنة الموعودة ، التي لا يمكن ان نكون على الارض ، ما دام ثمة مالك ومملوك ، فهي في السماء بعد الموت ، ولا يدخلها الا القادرون على احتمال البلاء . وهذه الجنة يباح فيها كل ما حرم على الارض !

شددت الديانة اليهودية (ديانة رعاة) في امر الزنى ، فأمرت بقتل الزانية رجما بالحجارة (الزانية في عرفها هي الخارجة عن طاعة رجل ، زوجة او مملوكة ، ومجال تمردها وخضوعها للمغريات في دور الرعي واسع جدا ، لذا شدد في الارهاب والعقوبة) .

ولكن الملك داود لم يتحرج من عشق جارته ، امرأة احد قواده ، ولم يستح من ان يطل عليها من كوة (حبيبي أطل علي من الكوة فحنت عليه احشائي) وقد عشقته المرأة في غياب زوجها ـ في معركة ـ ونبع داود نداء الفن ـ فهو الزامر الشاعر ـ ونسي الملكية والنبوة ، ولم يحاسب فهو القوي بالنبوة والملكية . وما كان ابنه سليمان اقل منه قوة وحرية (وحكمة) . وداود رمز الجمال ، ما زال تمثاله (عاريا) رمزا لجمال الرجولة . وقد كانت كل تماثيل ميخائيل انجيلو وتصاويره عارية وهي تمثل الآلهة والاقداس ، ويوم اعترض الكرادلة على ذلك ، ورعا وتقى ، صاح بهم الفنان الاعظم : إنا اصور الجمال كما اراده الله، لا كما تريدونه انتم . ووقف البابا يوليوس في صف محميه الفنان ضد كرادلته .

ولكن آخر انبياء بني اسرائيل (المسيح) صاح بالراجمين : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر . اعتراف واضح من هذا النبي المتسامح بأننا ضعفاء ، نرجع الى طبيعتنا التي خرجنا عليها ، رغم انفنا ، ويا لها من اشارة صريحة ، من هذا النبي الكريم ، الى نعاسة الانسان بما حمل من قيود .

وأتت بعد الديانتين ثالثهما، ديانة خاتم الانبياء والمرسلين، فقال الله تعالى : (الزاني والزانية فاجلدوا كلا منهما بمائة جلدة) . عقاب أخف ، قد لا يميت . ولكن عظمة الاسلام ليست في خفيف العقوبة ، بل بشروط اثبات الجرم . فالزنى لا يثبت الا بشهود اربعة ، يشهدون برؤيتهم عملية الاتصال الجنسي بوضوح تام (الميل في المكحلة) . اما ان يروا ، او يرى واحد منهم فقط ، الرجل فوق المرأة وخصيتاه تترددان بين فخذيها فقط فشهادة ناقصة . ولا بد أن يكون الدكتور النويهي قد قرأ قصة محاكمة المغيرة امام عمر بتهمة الزنى ، وكيف شهد عليه كل من ابي بكرة واخيه نافع وشبل بن معبد شهادة كاملة . اما الاخ الثاني لابي بكرة زياد ، فقد قال في شهادته : « رأيت مجلسا قبيحا ، وسمعت نفسا خبيثا وانبهارا . ورأيته متبطنها (وقيل) رأيته رافعا ساقيها ، ورأيت خصيتيه تترددان بين فخذيها ، وسمعت نفسا عاليا » . فقال عمر رضي الله عنه : أرأيته يولجه كالميل في المكحلة ؟ قال : لا . قال عمر رضي الله عنه : الله اكبر ، قم اليهم فاضربهم . وضرب كل من الشهود الثلاثة ثمانين سوطا ، وبرىء المتهم . الا يرى الدكتور معي ان الاسلام قد ادرك ضمنا ان علاقات الرجل والمرأة لا تخضع احيانا لمنطق ، ولا دين ، ولا عرف ، ولا تقاليد . وان اقسى العقوبات لا تردعها ، اذا تهيأ لها الجو المناسب . وان كل القيود التي صيغت لتكبيل دواعي الحياة تطير هباء عندما يعلو صوت الحياة ؟ واني لاسجد لرب الاسلام وأصلي على نبيه ، كلما تذكرت نصا من نصوص القانون الفرنسي ، الذي يبيح للزوج ان يطلق على زوجته عددا من الاعيرة النارية (لا اذكر العدد) اذا ما رآها في الفراش مع رجل ، اجل في الفراش فقط . هذا القانون (البرجوازي) وضع بعد اكثر من الف سنة ، قانون متمدن كما يقولون .

ان لمحامي الدفاع حرية تامة في الاسلوب . ولا عيب في طول المقدمة . فكل ذلك ذو صلة بالمحاكمة . ولندخل الان في صلب الموضوع : بشار بن برد شاعر عبقري ، اعمى ، مسلم ، عاش في اوج حضارة تولدت من امتزاج دين سمح واسع الصدر ، بحضارة الفرس العريقة وفلسفتها ، فلسفة زرادشت وآضرابه ، في دولة قوية اتسعت رقعتها حتى شملت اغلب العالم المعروف يومذاك ، المال يتدفق على عاصمتها بغداد كالسيول المنهمرة ، والثقافة تنصب فيها انصبابا . كتب الادب والعلم والفلسفة تشيع ويبدأ بترجمتها من اليونانية ، والفارسية ، والهندية . ويعلو صوت ابن المقفع وابن عطاء والجاحظ عملاق الادب والعلم معا . في ذلك العصر وضع هذا الجاحظ ، فيما وضع ، من عشرات المؤلفات ، رسالتين احداهما في تفضيل المرأة على الغلام ، والثانية في تفضيل الغلام على المرأة (في النكاح) . أترى يا سيدي الدكتور ان هذا الفيلسوف ، لم يستح ان يسرد كل حجج اللواطيين في تفضيلهم الغلام . فعل ذلك بحياد تام ، وساق كل حججهم دون شجب او تقبيح . هذا واللواط محرم في الاسلام قطعا !

ولنتصور الآن حالة المجتمع في ظرف فضيلتنا ، ووضع العائلة ، ومركز المرأة فيها . لقد أباح الاسلام للمرأة حرية التجارة والكسب ، دون تدخل زوجها ، ان كانت متزوجة ، وفرض عليها العلم ، كما فرضه على الرجل . وكان في مقدمة العلم الشعر والادب .

ولنعد الى المجني عليها : ما اسمها ؟ ما سنها ؟ ما مركزها ؟ ووضعها العائلي ؟ أهي حرة أم مملوكة ؟ الدلائل تشير الى انها من وسط راق متنعم . أذلتها حاضنة او مرافقة او رقيبة . اذن فلا بد ان تكون قد حضرت مجالس أدب وطرب ، وشرب وسكر وفصف ، من وراء ستار ، او دون ستار ، فسمعت احاديث الظرف والادب ، وسمعت غناء القيان ، ورأت رقص الجواري والغلمان . ولا بد ان تذكر أخبار بشار رب الظرف في عصره ، ويتغنى ببعض شعره . ألا يثير ذلك الفضول عند كل امرأة في مركزها ؟

ولنتساءل : أكانت المجني عليها فريدة عصرها في الجمال ليسمع بها بشار ؟ لا اشارة لذلك لا في شعر بشار ، ولا في اخباره . ولو كان بشار مبصرا لقلنا : ربما رآها صدفة ، واشتهاها ، وعزم على الفتك بها . كل الدلائل تشير الى انها هي التي عرفت بشار من أخباره ، فاستظرفت شعره ، واستكبرت عبقريته ، وعلمت مبلغ ضخامة جسمه ، وقوة غريزته ، بل وسمعت بقبحه وقبح عماه . ان الرجل لا يعجبه العمى او القبح ، ولا يهتم بضخامة بشار وقوة شهوته، ولكن للنساء ، والمتونبات المقبلات على الحياة ، وبصورة خاصة الموفورات الصحة ، المتفذيات اكمل غذاء ، والمتنعمات في الدنيا ، ذوقا آخر . لقد سجل التاريخ والفن غرام بعض النساء بالحيوان ، وفي « الف ليلة وليلة » قصص نساء عشقن دبا او حمارا . وفتيات اليوم ، في العالم المتحضر ، يزددن عشقا بالهيبي كلما ازداد قذارة ونوحشا . انا استشهد بالحاضر كما فعل الدكتور ، كل ذلك يدل على توقد الحياة في اجسام فتية هائجة .

والنتيجة ان الفتاة هي التي سمعت ببشار ، ونافت الى رؤيته ، والى مغامرة معه . والمغامرة غير خطيرة ، فهو اعمى ، وسيقبلها دون ان يعرف اسمها ، اي يجهلها جهلا تاما .

ما أسهل كل ذلك . واذا ما ذهب القارىء مذهبا آخر فعليه ان يفسر لي ما الذي قادها اليه ؟ ولماذا طردت خادمتها ؟ واختلت به ، في غرفة تسترهما عن الفضول بستار ؟ مرحى مرحى . اما زال بشار

منهما ؟ لقد رأت ذات الشهوة العارمة تلك الضخامة ، وذلك القبح ، وشمت رائحة رجولة تثير الشهية الجنسية ، كما يثير فتار اللحوم سوائل المعدة . ان الزهور تطلق اريجها في فصل اللقاح ، والحيوانات تفعل ذلك ايضا ، وما نعرفه منها ، رائحة غزال المسك ، وقط الزباد. والرجل والمرأة ايضا ينبعث من جسميهما رائحه ذات نكهة خاصة ، تحرق كل قيد وهمي يجول بين انصالهما . وتحدث الواقعة ، فلا تبكي الفتاة ، ولا تستغيث ، ولا تضرب بشارا دفاعا عن عرضها . وما اسهل الهرب من اعمى ... كل ما ذكرت ، بعد الواقعة ، ندوبا لم تحس بها وهي في النشوة . وبعد ان اسبعت تلك الشهوة العارمة ، رأت قبح بشار على حقيقته . لقد كان الطعام مما لا يستسيغه النظر ، وكبقية بنات جنسها ، تندم في مثل تلك الحالة ، وتنصب في اللوم على الشريك ، الرجل ، فتلعن اباه وأمه . فيضحك بشار ، فهو يعلم حقيقة الموقف ، ومن اكثر منه جدارة بمعرفة ذلك ؟ ومن هنا أنت سخريته ، لا بالفتاة ، ولكن بملك المتناقضات . واني لواثق بأن شيئا مكروها لم يحدث للفتاة ، التي أبكت مأساتها الدكتور محمد ، بل ولربما عادت الى المائدة مرة اخرى ، والجدة وحدها تستحق التسجيل .

ولا يتوهمن القارىء ، اني القي لوما على الفتاة ، أو اتهمها في اخلاقها ، بعد المقدمة التي ذكرت ، بل اني لمعجب بها ، وبمغامرتها . واني لاتصورها مثقفة ، ذات مستوى عال ، في عصرها ، تتذوق الشعر والادب ، وتعتني باصحاب العبقريات ، وتكافئهم .

لقد روت لي فتاة بارعة الجمال في سن العشرين ، في معرض اعجابها بالنحات امبروزي ، قائلة : « يوم رآني بدأ يلغلغ (امبروزي كهل اخرس) فتعريت ومنحته جسدي اعجابا بعبقريته » . كان ذلك قبل خمسة عشر عاما في فيينا .

وأخيرا ألا يمكن ان تكون كل القضية خيالا في خيال ، فلا تكون ثمة مجنيّ عليها ولا متهم ولا جريمة، وما ذلك بغريب على بشار ؟ وليتذكر الدكتور قصة غرام الحمار الذي مات عشقا بأتان الصيدلاني ، تلك الاتان ذات الخد الاسيل (مثل خد الشنفراني) .

واخيرا فلا أجد في قانون الفن والاخلاق ما يؤاخذ بشار عليه . أما من ناحية الفن فقد اجده قد قصر بالوصف ، ولا الومه على عاميته . وما عيب العامية يا سيدي الدكتور ؟ اترك تعيب « الف ليلة وليلة » ايضا ، اعظم كتاب في ادب العامة واخلده ، بشهادة عمالقة الادب في الغرب قبل الشرق ؟

ان بشارا لم يصف لقاءه كما وصف مثل هذا اللقاء في قصة « الحمّال والبنات السبع » او في قصة امرأة اصطادت رجلا من المشارع لتستمتع به (لا اذكر عنوان القصة) ، وفي القصة شعر يصف الرجل فيه عري المرأة وجمال جسمها جزءاً جزءاً .

ان العرب في اوج حضارتهم لم يضعوا (تابو) على الجنس كما نفعل نحن الآن ، لا في الفن ولا في الادب . كانوا احرارا في التفكير وفي الفن وفي الحياة ، وكان العباقرة منهم يكافحون في سبيل توسيع تلك الحرية وشمولها ، فيتعرضون بذلك لنقمة السلطان، ويستشهدون. هكذا سقط ابن المقفع وبشار بن برد ، كما جلد وقتل الكثيرون بعدهما .

فدع لحية بشار يا سيدي الدكتور . لقد مات تحت سياط الخليفة بتهمة (بائخة) وبقي ملعونا حتى يومنا هذا . وبارك الله في الشيخ محمد الطاهر بن عاشور التونسي الذي نشر ديوانه الكامل بعد ان ضاع حقبا طويلة من الزمن .

انا لم اقرأ كتاب الدكتور محمد النويهي عن بشار ، وسأبحث عنه لاقرأه ، فان سبب نقمة المهدي عليه ، ومنع أعطيته عن هذا الشاعر البارز يحيرني . لقد باداه الخليفة بالعدوان حتى هجاه بشار بقوله :

خليفة ينكح عماته يلعب بالدبوق والصولجان

حقا لقد كان بشار شنيع الهجاء ، واعتقد ان ذلك كان سبب قتله ، واذا ما أبحنا لانفسنا محاكمة بشار على تفريره بفتاة ، فلماذا لا نبيح لانفسنا محاكمة المهدي على جريمته النكراء بقتله عبقريا بالسوط ، ورمي جثته في مستنقع ؟ ويقال ان الخليفة ندم بعد ذلك . وما زال الفنان الصادق الجريء يضطهد في دنيا العرب حتى اليوم .

ان من مظاهر الحضارات ، قديمها وحديثها ، التسامح وسعة افق التفكير ، وعدم التقيد بالشكليات ، وما قد ابتدع في عصور التخلف ، من مقاييس اخلاقية . وها هي ذي الدول الاسكندنافية ، ارقى الامم الاوروبية في نظري ، قد فصلت الاخلاق عن الجنس ، كما فصل قبل ذلك الدين عن السياسة . بل وتطرفت في نظرتها الى العلاقات الجنسية نطرفا قد يكون غير محمود العواقب .

ان بشار في نظري فنان عبقري ، مرهف الحس ، فهم الحياة وتعلق بها ككل فنان اصيل ، فدافع عنها ، وهاجم اعداءها . ولا يستبعد عنه ان يعبث بصياغة حكاية ، تمثل غرائب متناقضاتها ، ويجيد في الوصف حتى يخدعنا بصدق حكايته ، أوليس هو القائل :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ولم يستطع مبصر أن يبدع مثل هذا الابداع في الوصف .

وان كنت اعتذر لبشار ، فقد سامح الله الشعراء قبلي بقوله : (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون ؟) .

فيينا ذو النون ايوب

شعر

من منشورات دار الآداب

		ق.ل
سفر الفقر والثورة	عبدالوهاب البياتي	٢٥٠
اباريق مهشمة	=	٢٠٠
الذي يأتي ولا يأتي	=	٢٠٠
الموت في الحياة	=	٢٥٠
كلمات لا تموت	=	٢٠٠
النار والكلمات	=	٢٥٠
الكتابة على الطين	=	٣٠٠
العصافير تموت في الجليل	محمود درويش	٢٠٠
الناس في بلادي	صلاح عبدالصبور	١٥٠
اقول لكم	=	٢٥٠
احلام الفارس القديم	=	٢٥٠
مأساة الحلاج	=	٣٠٠
لم يبق الا الاعتراف	احمد عبدالمعطي حجازي	٢٥٠
ديوان ابراهيم	ابراهيم طوقان	٢٥٠
المسرح والمرايا	ادونيس	٦٠٠
قصائد ليست محددة الاقامة	سالم جبران	٢٠٠
بعيدا عن السماء الاولى	سعدي يوسف	٢٠٠
علي محمود طه (مختارات من شعره) اختارها وقدم لها	صلاح عبدالصبور	٢٥٠
ابراهيم ناجي (مختارات من شعره) اختارها وقدم لها	احمد عبدالمعطي حجازي	٢٠٠
بدر شاكر السياب (مختارات من شعره) اختارها وقدم لها	ادونيس	٢٥٠
نخلة الله	حسب الشيخ جعفر	٢٠٠